مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 7 العدد 2 / ديسمبر 2021
ص ص 279-286

تأويل المكان والهوية في رواية "البيت الأندلسي" لواسيني الأعرج

Interpretation of Place & Identity in the "Andalusian House" by Ouassini Arredj

سليم بوعجاجة
جامعة امحمد بوقرة بومرداس (الجزائر)
bouadjadja@gmail.com

الاستلام: 2021/10/24 القبول: 2021/12/11 النشر: 2021/12/31

ملخص:

تعكس رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج هويات متقاطعة تعايشت أحيانا وتصادمت أحيانا أخرى، و فيما تؤشر أمكنتها وشخوصها على اختلاف وتنوع في الهوية، تعود لتؤسس لرؤية تتجاوز البعد الدوغمائي والمحددات المسبقة للهوية، وتجترح جملة من المفردات التي تتجاوز الصدام لتبشر بالتعايش المشترك بين البشر بعيدا عن الهويات القاتلة .

الكلمات المفتاحية: التاريخ ؛ المكان ؛ الهوية ؛ البيت الأندلسي.

Abstract:

The Andalusian House by Ouassini EL Arredj reflects intersecting identities that coexist sometimes and collide other times. While the places and characters display difference and diversity in identies, they come back to establish a vision that goes beyond identity's dogmatic dimension and pre-determinants. They suggest a range of vocabulary that transcends clashes in order to herald coexistence between humans away from deadly identities.

Keywords: history; place; identity; the Andalusian House.

1.مقدمة:

تنهض رواية البيت الأندلسي على توظيف التاريخ من خلال استدعاء وقائع حدثت خلال فترة الوجود الإسلامي في الأندلس؛ تلك الفترة التي أشرت على انفتاح ثقافي غير محدود، عكسته الآثار الفكرية و الأدبية التي أنتجها علماء و كتاب وأعلام ذاع صيتهم في شبه الجزيرة الإيبيرية ، و أفصحت كتاباتهم عن روح علمي وثقافة تعايش مكنت من ظهور نتاجات من مختلف الملل والأعراق النحل، غير أن هذا التعايش سرعان ما استحال إلى صدام عنيف، تم فيه اجتثاث العنصر العربي الإسلامي، وتحول بفعل تغير ميزان القوة إلى ساحة صراع وقتل وتصفية على أساس الهوية، ما دفع بقطاع غير قليل من المسلمين إلى الهجرة خوفا من محاكم التفتيش، انطلاقا من هذه الوقائع التاريخية قامت رواية البيت الأندلسي برسم صورة متخيلة تتحرك ضمنها شخصيات من فترات تاريخية مختلفة موزعة حسب مقتضى الحال، وتعويلا على المتخيل التاريخي لعبت شخصيات الرواية. التي تطاحنات أحيانا وتعايشت أخرى أدوارا مهمة في الدفع بخطاب الهوية إلى التصدر انطلاقا من المكان الذي هو البيت الأندلسي، الذي لم يبق

محافظا على هويته الأولى، بل تعرض إلى التشويه والمسخ بعد أن تعاقبت عليه أجيال عديدة، وعبر الإصرار على الحفاظ على هذا الإرث التاريخي من طرف الورثة، تحول في الأخير إلى فضاء يفتقر للهوية التي لازمته لقرون

وهو موضوع نهضت به الرواية في توظيفها للبعد التاريخي، و الثقافي عموما عبر التأليف بين جملة من الأحداث، وعلى نحو ما تحضر الهوية بوصفها مفهوما يرتبط بالوجود والذات والتراث الثقافي، ليطرح سؤال الهوية مرتبطا بالمكان الحامل لجملة من القيم الثقافية، مثلما يرتبط بالتعدد والتنوع والاختلاف والتغيير أو التشابه، والتماثل والثبات الاجتماعي و في صيغها المتعددة ومستوياتها المختلفة (الحيدري ، 2006)

1.1: أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة أنها تنهض على لعبة الهويات المتقابلة، التي تفاوضت على أنحاء متعددة من الصدام و التسامح، أو السلم والحرب، أو الحوار و العنف، و قدر ما كانت تؤشر على هوية بعينها، تعود لتظهر هوية أخرى تنضاف إليها وتتعايش على نحو من الحوار المهموس تارة، أو الاعترافات التي تفضي بها شخصيات طحنت الحروب أضلاعها تارة أخرى؛ هويات شخصيات أعياها الانتظار الطويل، وأرقها صقيع المنفى والاغتراب، وأثارها القتل والأسر والركض وراء الأحقاد التاريخية التي أورثتها حروب القرون السابقة.

2.1. أهداف الدراسة.

ترمي هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف نذكر منها:

- مساءلة المكان بوصفه عنصرا يؤشر على الهوية
- توصيف المكان مع تسجيل التغيرات التي حدثت بوصفها مؤشرات ذات دلالة
- رصد وتأويل الأمكنة المتعددة بوصفها صورة عاكسة للهوية.

3.1. إشكالية الدراسة

تم عرض الهويات في البيت الأندلسي عبر الإسقاطات التاريخية على الراهن ما يمثل عنصرا إضافيا يحول الواقعة التاريخية من طبيعتها الجامدة إلى حيوية التخييل عبر الآني والراهن، ما يكسب التاريخ رؤية جديدة لا تكتفي بالسرد التاريخي الصارم ، بل تنفتح على قراءات أخرى؛ وهي القراءات التي ما فتئ يشير إليها السرد في غير ما موضع، وانطلاقا من ذلك تطمح هذه الدراسة الموسومة ب(تأويل المكان والهوية في رواية البيت الأندلسي) إلى الإجابة على جملة من التساؤلات التي نراها مشروعة مؤداها : إلى أي مدى تقوم رواية البيت الأندلسي بتوصيف الهوية انطلاقا من هذا الفضاء الذي اجتمعت فيه ملامح و خصائص عديدة ؟ و إلى أي مدى يتحول المكان إلى هوية، والهوية إلى مكان ؟ بالنظر إلى الحمولة الثقافية للمكان من ناحية، التي تحيل على معطى تاريخي و ثقافي ، و إلى الهوية الهندسية و المعمارية للبيت تحديدا من ناحية أخرى و التي تعكس خصائص فنية بعينها تشيد هوية البيت.

2- تجليات البيت / المكان كهوية :

2-1- المكان المصطلح والمفهوم :

جاء في لسان العرب في باب الميم " والمكان الموضع والجمع أمكنة ، وأماكن جمع الجمع " (ابن منظور، 1993 ج 2، ص 569.)

، وفيما يرى صاحب تاج العروس بأن المكان هو " الموضع الحاوي للشيء وعند بعض المتكلمين هو عرض واجتماع جسمين حاو ومحوى" (الزبيدي، ج9 ، ص 388)

في حين يرد مفهوم المكان في المعجم الفلسفي على أنه " الموضع وجمعه أمكنة وهو المحل LIEU المحدد الذي يشغله الجسم ، تقول مكان فسيح ومكان ضيق، وهو مرادف للامتداد "، ويعد المكان

أكثر قدرة على التعبير على " (صليبا، 1999، ص 412.)

فكرة الكينونة في تجسدها وانقطاعها عن الذهنية البحتة ومطلقية التجريد، فهو المتلازم الأهم مع فكرة الوجود، فلا وجود خارج المكان، والكون مكان مطلق، تعجز عن حدوده المقاييس والأزمنة (صالح،1997، ص 11.)

أما في مجال الدراسات الأدبية فإن المكان أصبح مقوما رئيسا للعمل الأدبي، ففي السرد يكون المكان بمثابة " البؤرة الضرورية التي تدعم الحكي وتنهض به في كل عمل تخيلي " (بحراوي ، 2009، ص 29) ، لأن المكان في الرواية له من الأهمية ما يجعله حاضرا حضورا رئيسا، انطلاقا من الهندسة المعمارية للمكان أو بالنظر إلى جغرافيته الثقافية، انطلاقا من كون الرواية هي النوع القادر على تصوير المكان واستنبات المعاني والدلالات التي يحيل عليها.

2-2- -مفهوم البيت عند باشلار :

يعد البيت عند باشلار فضاء مهما لتقاطع الذكريات وحضور الماضي والشعور بالحميمية مع المكان، وعليه ف " البيت هو ركننا في العالم، إنه كما قيل مرارا كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى. وإذا طالعنا بألفة فسيبدو أبأس بيت جميلا، إن مؤلفي كتب (البيوت المتواضعة) كثيرا ما يذكرون هذا الملمح من جماليات المكان " (باشلار، 1984 ، ص 36) ويتحول المكان إلى كائن يحفظ الذكريات وينسج الأحلام ويؤثث الماضي و يعيد إنتاجه، فالبيت جسد وروح وهو عالم الإنسان الأول الذي نشأ فيه، ونبتت فيه أحلام يقظته وأصبح لوجوده معنى، إذ دائما ما تبدأ الحياة في كنفه، حياة محمية ودافئة في صدر هذا البيت " كانما يتحول البيت إلى المكان الأم الذي يحتضن الإنسان ككائن هش يهيئ نفسه لاستقبال القادم" (الأعرج ،2010 ، ص 67) أو يغدو بمثابة " الرحم للجسد بجدرانه التي تتقارب، ومع تزايد صفات الحماية فيه يصبح أكثر قوة في الخارج " (الأعرج ،2010 ، ص 67)

وعلى نحو ما يكتسب المكان أهميته عندما يتماهى مع الذاكرة الإنسانية، فيعطي له الإنسان قيمة، يستعيدها عندما يستدعي المكان.

2-3-البيت الهوية المرتحلة :

يبدو موضوع الهوية موضوعا ملتبسا " ذلك أن مفهوم الهوية يتضمن درجة عالية من التعقيد، لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته" (مكشيللي، 1993، ص 7) كما يرى ميكشيللي، وفي رواية البيت الأندلسي **يكتسب المكان أهميته من حركة الشخصيات التي تتحرك في الفضاء، وتعطيه أهمية من حيث كونه يحيل على الماضي الذي يفتأ يحضر بزخمه التاريخي عبر الذاكرة**، وما ترسب فيها من أحداث، وفي رواية البيت الأندلسي هي رواية مكان بامتياز على أساس من كون العنوان يحيل على المكان ولا شيء غيره. يشتغل الحوار والسرد ضمن استراتيجية تتمحور حول البيت حضورا وغيابا، بوصفه شيئا رمزيا يقوم شاهدا على خصوصية تم تغييبها، وتتوالد الأسئلة المضنية التي أتعبت أصحابها، حول مصير البيت الذي أصبح عرضة للهدم من طرف جهة ترى فيه عائقا أمام تشييد بناء عصري لا يلقي بالا لخصوصية البيت، الذي ظل صامدا لقرون، يستمد منه أصحابه هويتهم بوصفه إرثا ماديا ذا بعد ثقافي. لكن إلى أي مدى يستطيع أصحاب البيت أن يقاوموا **محو هذه الهوية** ضمن سياق أصبح يمثل حالة مرضية مستعصية؛ هكذا يأتي التساؤل جارحا عبر إسقاطات على شكل أسئلة تعقبها إجابات تفصيلية تضع البيت في سياقه التاريخي وتعيد إنتاجه من جديد:

" من أين أبدا هذا الجرح يا سيكا ؟

أمن الدار؟ أمن سقم أصبح يشبهها في كل شيء؟ " (الأعرج ،2010 ، ص 27.) هاهنا يتحول البيت إلى عنصر قلق بما يشكله من ذاكرة وما يمثله من رمزية " هذه الدار، الخربة الرومانية، البيت الأندلسي، كازا أندلوسيا، دار لالة سلطانة بلاثيوس، دار المحروسة، دار لالة نفيسة، دار زرياب، إقامة الإمبراطورية، ملهى الضفاف الجميلة ...كلها أسماء صاحبت البيت الأندلسي عبر حقب مختلفة وكثيرة " (الأعرج ،2010 ، ص 27)

غير أن هذا العرض الأولي لم يكن سوى إيذان بسرد تاريخي يؤرخ للبيت الذي اكتسب أهميته من حيث علاقته بالشخصيات، لكن بعد أن واجهنا مصيره كفاحا في المستهل عندما شب " الحريق المهول الذي أكل البيت الأندلسي" (الأعرج ،2010 ، ص 8.) كأنما يؤشر هذا على خطاب يحدد مصير البيت بداية درءا لأي التباس، وهو خطاب قضى بمحو آثار البيت حرقا ثم كتب شهادته استنادا إلى الشخصيات التي وضع الكلام في فمها على اختلاف مواضعها.

تتحول رواية البيت الأندلسي إلى مرثية قدر ما تتغنى بذاكرة غنية و متخمة بالثقافي، تحرص على أن توجه المتلقي بداية إلى ما سبق، حيث يستهل الرواية ببيت أبي البقاء الرندي:

و هذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شأن

يكتسب البيت أهميته من هوية أهله عندما يرتبط بوصية الجد الأول غليليو الروخو :

" حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي و دمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدما فيه أو عبيدا " (الأعرج ،2010، ص 43 و147) هنا يتحول البيت إلى رحم للجسد عندما يوفر له الحماية ويحمله على المقاومة (باشلار، 1984، ص 67) تمثل الوصية التي تفتأ تتكرر غير مرة على ما يمثله البيت من ذكريات تتصل أساسا بأحلام تم ترحيلها من غرناطة حيث ترك غليليو الروخو أملاكه وخرج منها مطرودا بعد أن ذاق عذابات محاكم التفتيش، وقبل أن تطأ قدماه الأرض الجديدة كان الحلم يراوده في أن يعوض ما سبق حفاظا على هويته الأندلسية، التي يشهرها انطلاقا من المكان الذي يصل إليه " سأبني بيتنا الأندلسي على الأرض الأخرى، وسنسكنه مع بعض لي يقين بذلك لا يلين أبدا. سنبنيه هنا في هذه الدنيا قبل الآخرة. لا أدري في أي مكان، ولا في أي زمان، ولكني مطمئن للآتي. واجهت موت المحاكم وخرجت كاملا، فلن تقهرني أية قوة أخرى بعد الآن. حلمي الذي وعدتك به واشتهيته وأنت ترينه منجزا في أحد مرتفعات غرناطة، سيلازمني إلى آخر العمر." (الأعرج ،2010 ، ص 92). هكذا تتم عملية ترحيل الهوية حفاظا على الذاكرة وعلى الأحلام، ثم يجسد هذا الحلم في شكل بيت أندلسي يوحي اسمه ويحيل على هوية بعينها، غير أن هذا البناء الذي تم تشييده لم يحتفظ بالخصوصية الأندلسية الخالصة في خطاب يبطن تعددا يظهر أول ما يظهر في كونه بني على أنقاض معبد روماني حوله المسلمون إلى مركز متقدم لحراسة السواحل.

2-4-هوية البيت والبيت الهوية :

على أي أساس نقوم **بتأويل هوية البيت الذي أعطاه صاحبه صفة الأندلسي؟** وهل هذا التصنيف يتعلق بالطابع المعماري، الذي استعاره الموريسكي غليليو الروخو ؟ أم يتعلق أساسا بهوية صاحبه الذي قام ببنائه وينسب إليه ؟ فهل كان البيت بالنسبة لغاليليو الروخو مجرد فضاء يأوي إليه وقت يشاء شأنه في ذلك شأن بقية البيوت لأنه احتاج إلى ذلك ؟ إن " الإنسان لا يحتاج إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته، ومن ثم يأخذ البحث عن الكيان و الهوية شكل الفعل على المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها الأنا صورتها، فاختيار المكان

وتهيئته يمثلان جزءا من بناء الشخصية البشرية " (لوتمان، 1986 ، ص 83). **فإلى أي مدى يرتبط البيت الأندلسي بهوية غاليلو الروخو ويؤشر عليها؟**

تأسيسا على الأسئلة السابقة تتعذر نسبة البيت إلى الأندلس على اعتبار أن غليليو الروخو " الموريسكي الضائع الذي بناه بأناامله مثل الذي يعزف نوبة أندلسية على تلوينات طبوعية مختلفة (الأعرج ،2010، ص 32). لا يعد أندلسيا لأنه لا ينتمي إلى فترة ما قبل سقوط غرناطة، فهو بهذه الصفة مورسكي تم ترحيله في وقت لاحق ليس قبل منتصف القرن السادس عشر، على اعتبار أنه شارك في حرب البشارات بمعية محمد بن أمية على افتراض أن هناك طرد سابق للطرد التاريخي في نهاية العقد الأول من القرن السابع عشر.

وعودا إلى الافتراض الثاني نجد توصيفات مختلفة للبيت فمرة يكون مجرد " حيطان ترابية أكلها الزمن " (الأعرج ،2010، ص 139). و مرة أخرى يكون " موقعا عسكريا رومانيا " (الرواية، ص 139) أو " إقامة لنابليون الثالث " (الأعرج ،2010، ص 54) وفضلا عن التغييرات التي مست البيت تحولت واجهته في فترة لاحقة إلى " تصميم عمراني خليط بين العثماني والفينيسي" (الأعرج ،2010، ص388). وفي هذا الصراع الديناميكي بين البيوت والكون نستبعد الإشارة إلى الأشكال الهندسية البسيطة. إن هذا البيت المجرب ليس مجرد صندوق ساكن، فالمكان المسكون يتجاوز المكان الهندسي " (باشلار، ص 67 – 68) وهو ما يحيل على الهجنة التي تأتلف فيها جملة من الخصائص التي تطبع الهوية الفسيفسائية، التي قضت التعديلات التي طرأت عليها باستيعابها لعديد السمات، فضلا عن الذاكرة التي تطبع البيت بالنظر إلى ساكنيه، وهنا يفتقد البيت صفته ليكون أقرب إلى الاختلاف منه إلى المطابقة العينية للهوية الأندلسية.

يقطع الراوي (غليليو الروخو) الشك باليقين عندما يصرح أن هذا البيت هو بيت سلطانة زوجته اليهودية المارانية " لبيتي معنى واحد اسمه سلطانة " (الأعرج ،2010، ص 172) يؤكد هذا ما وجد في مدخل البيت : " البيت الأندلسي، دار سلطانة بلاثيوس ألونصو كتبت بالعربية، ولم تبق من خطوطها العبرية إلا بعض الحروف التي كانت تقاوم فعل الأيدي البشرية التي حاولت مسح الرخامة ولكنها لم تفلح كليا " (الأعرج ،2010، ص 39) وهي إشارة إلى الهوية اليهودية للبيت، في استدعاء يظل يتكرر في أمكنة كثيرة " وجدت أستاذة التاريخ صعوبة كبيرة في إقناعهم بتفسير وجود الخط العبري في بيت أندلسي" (الأعرج ،2010، ص 140) وهي اسئلة هوية قذف بها إلى السطح لتشكل خطابا ظل مقموعا في وقت سابق، ما يشير إلى تشديد على إبرازه على نحو يعيد طرح الأسئلة الحرجة ضمن سياقات معينة.

تقوم لعبة المحو و الإثبات بتقديم وتأخير وإثبات ونفي ضمن سيرورة تصدر فيها القمع والإلغاء، يأتي هذا على لسان نصيرة أستاذة التاريخ:

" . يا عمي مراد قلبك طيب. كل ما يحيط بالبيت الأندلسي تم محوه ؟ الشركات الأجنبية تستعد للاستيلاء على المكان. قرأنا هذا في الإعلانات، وأخي شاف الخبر في الأنترنت. فكرة تهديم البيت ليست بدعة ولكنها حقيقة ؟ ".(الأعرج ،2010، ص 141)

فالبيت الذي اكتسب طابعه المتنوع لم يستطع أن يحافظ على هذا التعدد لأن هناك إرادة تدفع نحو المحو و الإلغاء ولا تقر أصلا بوجود البيت فضلا عن قبولها به واجهة للاختلاف.

3- المدينة الكوسموبوليتانية (الكونية) :

يتيح لنا نص البيت الأندلسي أن نكتشف فضاءات عديدة، حيث تبدو الأمكنة مفتوحة على كل مختلف مثلما هي مدينة الجزائر التي

اكتشفها ثربانتس لأول وهلة " عندما دخلت السفينة إلى ميناء الجزائر عن طريق الأميرالية، فوجئت بالمدينة التي تتسلق جبلا في مواجهة الشمس ببياضها الناصع. كنت أنتظر أن أرى عشا للقراصنة اكتشفت مدينة كبيرة يسكنها أكثر من مائة وخمسين ألف ساكن يشتغلون مختلف الصناعات والمهن " (الأعرج ،2010، ص 282) حيث خالفت المدينة توقعاته كونها ليست سوى مصدر للشرور.

يؤشر ما سبق على رؤية مسبقة حكمت تصور الآخر للمدينة، غير أن الإفصاح عن هذا يكشف عنه السرد الذي يسترسل في توصيف المدينة التي كانت توسم ب (عش القراصنة) على أنها مدينة على قدر من الأهمية " ميناء نشيط وملئ بالحركة والحياة. ومنارة كبيرة للسفن ومخازن واسعة على حواف الميناء تحتوي على كل حاجيات المدينة وتجارتها، حركة لا تنتهي بين مختلف الأسواق، وشوارع تختبئ بين الأشجار. تحتفي فيها المساجد والحمامات والقصور والسواقي بمائها الصافي. خارج أسوار المدينة تنتشر أيضا القصور والغابات الكثيرة التي تشرف على البحر. كل ما يوحي بحياة جميلة وحيوية اختزلتها نظرات الحروب الدينية " (الأعرج ،2010، ص 288). هنا يسترسل الوصف ليكشف عن رؤية تعمل على إبراز جوانب حضارية غطت عليها القراءات الدينية المتحيزة.

يرتكز الوصف السردي على المتخيل استنادا إلى ما هو واقعي، غير أنه لا يبتعد كثيرا عن سرديات القرن السادس عشر التي جاءت في كتابات دييغو دي هايدو و مارمول كربخال و ميغيل دي ثيربانتس التي قامت بوصف مدينة الجزائر. ففضاء (المدينة) بما هو فضاء مفتوح على المختلف يتوافر على جمالية فائقة أفصحت عنها الفقرة السابقة، غير أنها تبقى مدينة حروب وقرصنة واقتتال طالما تواصلت هذه الحروب الدينية والغارات المتبادلة بين الضفتين. يحيل المعنى السابق على المكان ويعيد إخراجه على نحو يعلي من شأن المدينة، غير أنه يعود ليفصح في مواضع أخرى عن كون هذه المدينة تحمل من التناقضات ما يستعصي على الإدراك، فهي خليط من العلوج من العلوج من إيطاليين ويونانيين و ومالطيين وإسبان، تسع المساجد و الحمامات وأسواق العبيد، كما السفن وعديد البيوتات والمقابر والأشجار الكثيفة . المدينة على هذا النحو هي فضاء للتنوع و التناقض و مكان لالتقاء المفارقات، ما يحيل على فسيفسائية تعكس التعدد المتجذر منذ قرون.

4- المقبرة فضاء التمايز و الائتلاف :

تمثل المقابر الاستراحة الأخيرة للإنسان على وجه التساوي بين بني البشر، إلا أنها لا تخلو من إشارات ثقافية ودينية تترجم هوية الموتى الذين قضوا ولم تعد لهم القدرة على تعريف أنفسهم، هاهنا تقف شواهد القبور وواجهات المقابر شاهدة ودالة على الهوية التي تخفيها المقابر، واستنادا على المعتقد الديني تحتفظ كل طائفة دينية بمقابرها التي ترعاها على نحو ما تمليه عليها عقيدتها الدينية، ثم تحرص على أن تدون هوياتها وتسجل ذواتها الثقافية، " لذلك كانت الكتابة مقدسة ، وللحرف حرمة وحصانة روحية، لا تنقش إلا في الموضع المسمى جدران معبد أو المأوى المؤدي إلى الآخرة المقابر " (الغيطاني، 2007، ص 38).

تتحول نقطة العبور المحاذية للبحر إلى نقطة ترقب للعودة إلى الوطن أو إلى نقطة وداع إلى الأبد وتتحول قطعة الأرض البحرية التي اشتراها جده غاليليو للعائلة، إلى نقطة عبور نحو تحقيق حلم العودة إلى الموطن الأصلي. "هي نفسها النقطة التي اختارها غاليليو ليدفن فيها إذا باغته الموت على هذه الأرض " (الأعرج ،2010، ص 386) وهو محدد يؤكد على هويته ة علاقته بالمكان (غرناطة) التي يتوق إلى العودة إليها ، و يبقى يساوره حلم العودة إلى أن يوافيه الأجل . هنا تنهض ثنائية

(المنفى / الوطن) في مواجهة حقيقتين أخريين (الحياة / الموت) تأكيدا على البقاء والإثبات مقابل الفناء والمحو.

تحولت الأرض التي اشتراها غاليليو " فأصبحت تسمى مقبرة الأندلسيين التي انتفى فيها العنصر الديني. استقبلت المورسكيين كما استقبلت المارانيين وبعض المسيحيين الذين هجّروا معهم على الرغم من قبولهم المسيحية تحت ضغط محاكم التفتيش المقدس. ربما كان المنفى أهم جامع لهم قبل كل شيء " (الأعرج ،2010، ص 386) هاهنا يشتغل المتخيل السردي على نحو يؤشر على انصهار الفوارق إيذانا بإخراج هوية واحدة يتساوى فيها الموتى بديلا عن فروقات الأحياء، وهو خطاب عولمي يقدم نفسه على النقيض من الصدام الحضاري القائم على أساس الطائفة الدينية، التي أسهم تمركزها في صناعة الكراهية وإعادة إنتاج العنف.

يفتأ يتكرر الخطاب السابق على هذا النحو على لسان مراد باسطا أحد أحفاد غاليلو الروخو، ما يشكل هوية سردية تتكون على نحو يعيد إخراج الصورة المتسامحة التي أدارت ظهرها للحرب وانتصرت للسلم : " سيكا .... أريد أن أدفن هنا في مقبرة ميرامار، التي دشنتها حنا سلطانة ثم جدي الأول غاليلو الروخو، قبل أن يملأها الذين جاؤوا من بعده. أحب هذا المكان ليس لأن به كل الناس الذين أحببتهم، ولكن لأنها المقبرة الوحيدة في الدنيا التي انمحت فيها كل الأديان. استقبلت المسيحي واليهودي والمسلم والبوذي، وحتى الملحد " (الأعرج ،2010، ص 9). وفق هذه الرؤية ينحو السرد منحى تتشكل فيه هوية المكان(المقبرة) عندما تصبح مقبرة عابرة للأديان، تذوب فيها الفوارق وتتسع لكل بني البشر ولا تبقى غير شواهد القبور دالة على تسامح الموتى وائتلافهم في محطتهم الأخيرة. يمّحي الانتماء ويشهر مراد باسطا هويته الإنسانية المتجردة من كل المحددات السابقة عندما يختار لنفسه الحياد " أدفن هنا ، ولا يهم بقرب من سأكون " هكذا يتحلل مراد باسطا من تبعات الهوية ومزالقها ويصر على " رغبته في أن يدفن في مقبرة ميارامار" (الأعرج ،2010، ص 11) إصرار يترجم رغبته في التخفف من أثقال الماضي؛ فمقبرة ميرامار هي المحطة التي انتهى إليها جده غاليليو الروخو مودعا كل أشيائه الجميلة وانتكاساته وحروبه وذكرياته مع سلطانة، غير أن السارد يريد أن يتتبع غاليليو الروخو في مرقده الأخير بحثا عن مخطوطات تربط الشجيرات الجنيالوجية ببعضها البعض، في مهمة حفرية تقوم بإيقاظ الماضي وبعثه من جديد " فكرة فتح قبر غاليليو الروخو، أو سيدي أحمد بن خليل، مهمة جدا لترميم تاريخ ظل جزؤه المهم غريبا ومبتورا ، لكن ذلك يحتاج إلى زمن آخر " (الأعرج ،2010، ص 25). في منحى لتأكيد الهوية بمعطى حفري أنثروبولوجي تقوم فيه الهوية الأنثروبولوجية شاهدا في مقابل الأبعاد الأخرى للهوية .

تسند الأركيولوجيا الهوية وترفدها على نحو تتطابق فيه المكونات الفيزيائية للمادة كما الهوية العينية، كما و تحدد الانتماء استنادا إلى المعطى الأنثروبولوجي، درءا للسرديات الشفوية التي جرى تحريفها عبر القرون، غير أن عامل التغير يجعل البعد الأنثروبولوجي ذاته يحمل نتائج متغيرة تبعا لطبيعة المكان الهندسية والجغرافية، لأن طبيعة الهوية تأنف أن تتحول إلى مادة تحكمها قوانينها الصارمة .

5-خاتمة

حملت رواية البيت الأندلسي عبء التاريخ وقامت بإعادة صياغته تعويلا على المتخيل لتعكس الأمكنة الشاخصة هوية محددة في بعض الأحيان ، فيما تحيل هذه الأمكنة في عمومها على هويات متحولة في أحيان أخرى تخففت من الماضي وانخرطت في الراهن ودخلت

في تعايش مع الآخر، ما يؤشر على نزعة عولمية كونية قطعت مع الخصوصية على نحو استثمرت فيه التاريخ لتبشر بعالم لا مكان فيه للخصوصيات .

النتائج: توصلت الدراسة لمجموعة من النتائج يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- حملت الرواية رؤية كونية للهوية انطلاقا من خلفيات أطرتها إفرازات ما بعد الحداثة التي أغرت الكتّاب بجملة من القيم ذات البعد الكوني.
- لامست الرواية مشكلة الهوية انطلاقا من المكان الذي يعكس في تغيره بعدا ثقافيا متعددا ينسخ بعضه بعضا في بعض الأحيان و ياتلف في أحيان أخرى.
-أدّى المكان في الرواية دوراً وظيفياً واضحاً في تحديد ملامح الهوية المتحولة.
- حملت الرواية في طياتها روح التسامح والتعايش مع الآخر.
-أشّرت الرواية على تغيرات الهوية الثقافية انطلاقا من المكان، المتمثل في البيت الذي أصبح يحيل على الهجنة والتعدد وتجاوز المعطى الجاهز، والمحلي.
ـ استثمرت الرواية في المتخيل التاريخي لمساءلة الواقع عبر المكان و الشخصيات في سياقات معينة تم فيها إسقاط الماضي على الحاضر على نحو لم يفقد الرواية فنيتها قدر ما طرح مسألة الهوية بتقاطعاتها المختلفة.

6- قائمة المراجع:

1-المؤلفات:

ابن منظور، محمد بن مكرم .(1993). لسان العرب. ط1. دار الكتب العلمية، بيروت.

بحراوي، حسن. (2009). بنية الشكل الروائي الفضاء الزمن الشخصية. ط 2. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

الغيطاني، جمال.(2007) . استعادة المسافر خانة، محاولة للبناء من الذاكرة. ط2 . دار الشروق. القاهرة.

صليبا ، جميل.(1999). المعجم الفلسفي. دار الكتاب العالمي، بيروت.

صالح، صلاح.(1997). قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر. دار شرقيات.

الزبيدي، مرتضى . تاج العروس.ج2 . دار صادر. بيروت.

الأعرج، واسيني.(2010). البيت الأندلسي. ط 2 . منشورات الجمل، بيروت ـ

مكشيللي، أليكس.(1993). الهوية. تر علي وطفة. ط1 . دار الوسيم.

. باشلار، غاستون.(1984). جماليات المكان. تر غالب هلسا. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت.

2- المجلات

. يوري، لوتمان.(1986). "مشكلة العمل الفني". تر سيزا قاسم. مجلة ألف للبلاغة المقارنة بالجامعة الأمريكية: ع 6 . ص 67، 68 .

. الحيدري،إبراهيم .(2006). "إعادة إنتاج الهوية العراقية ـ مجلة الثقافة الجديدة. ع 317 ص94 بغداد